

عملاق الشاشة الفرنسية جان جابان JEAN GABIN

ربما كان الأكثر ملاءمة أن يُكتب على قبره : « في نهاية المطاف ، لم يكن ذلك مسارا سيئا » . في أحد أفلامه : الحماسة البشرية - La Bete Humaine « قاد بنفسه قاطرة سكة حديدية ، كما كان يحلم أن يفعل وهو فتى صغير . ثم تمثل في أفلامه العديدة كل شخصيات « الكوميديا الإنسانية » التي تصنعها الحياة ، أو التي تصانع الحياة . فلما خرج هو من حياة الناس ، ترك لأسرته ثروة ضخمة ليست مختزنة في شركات وبنوك، ولا حبيسة عمارات ومبان وأبراج ، بل أراض زراعية خصبة مكشوفة للشمس والهواء ، وترك معها ثروة أضخم وأنفع وأمتع لملايين البشر تجعله بحق أعظم ممثلي السينما الفرنسية طوال القرن العشرين .. أى منذ بداية عصر الأفلام الروائية السينمائية . لقد وُلد فلاحا، وأثر أن يظل - رغم شهرته ونجوميته - فلاحا ، وتمنى أن يموت على أرض مزرعته التي كانت معشوقته الأخيرة .. في نورمانديا شمال فرنسا .. وقد كان !

في منتصف الثلاثينيات ، كانت شخصية « جابان » بدأت تستقر في الأذهان ، وشهرته العالمية تأخذ مكانها بين نجوم السينما المرموقين : إنه الفتى الشرير ، الغلام الشقي، الهارب من الجندية ، صحطم القلوب الوديعة ' المرتبط دائما بالمغامرات المثيرة ، لكنه، بأخلاقياته التي صنعها لنفسه ، يُظهر في المواقف الصعبة سلوكا نبيلًا غير متوقع، وذلك باستثناء فيلم « أسفل سافلين Bas - fonds » وفيلم

« الوهم الكبير: La Grande Illusion » . فهو القاتل في فيلم « المدفعجية - La Ban dera » ، وفي فيلم « صدغ الحب Gueule d'Amour » ، و « رصيف الضباب Quai des Brumes » ، وفيلم « الصباح يشرق Le jour se lève » . ولكي يصبح حرا طليقا فإنه يقتل نفسه في فيلم « Pépé Le Moko » ، وفي فيلم « الحماقة البشرية » ، و « الصباح يشرق » . ونهايته المأساوية في فيلم « بانديرا » هي تضحية وفداء ، وفي محتواها أيضا يأس وانتحار . إنه لا يُقتل عبثا أو حبا في القتل ، وإنما نقطة الضعف عنده أن يوضع في موقف يثير غضبه . وعندما يصرخ من أعلى سقيفته أنه قاتل ، فإن رفاقه في دور العرض السينمائي المظلمة ، كالعامل ، والميكانيكي ، والمشتغل بالسكك الحديدية ، والبنّاء .. يجعلونه بطلا لأولئك الذين لم تُتَح لهم فرصة مناسبة، وفي أعماق قلوبهم يلتمسون له البراءة والصفح .

مثلُ تقريبا كل الأدوار ، وتقمص غالبا كل الشخصيات حتى شخصية رئيس مجلس الوزراء متخذًا سمّت وهيئة « كليمنصو »^(١) وذلك في فيلم « الرئيس Le Président » وهو الفيلم الذي اختاره التليفزيون الفرنسي من بين عشرات أفلامه لكي يقدمه لملايين المشاهدين المحزونين ليلة وفاته . وإذا بهذا الباريسي الشرس الشرير القاسي القاتل يصبح سيذا مهذبا جديرا بمكانته الرفيعة في المجتمع . فهو نجم متألق من فيلم إلى فيلم ، بل عبقرية فذة في كل فيلم : من العظيم الشريف المبجل في « الرئيس » ، إلى لص مبتذل متخم بالثراء في « المال - Grisbi » ، وهو يحمل ثروته فوق ظهره في « الموشوم - Le Tatoué » جندي سابق في جوقة الشرف يضع وشما ، مقلدا لوحة مطابقة لإحدى لوحات الفنان العالمي « موديليانى » ، ويضايق تاجر لوحات فنية إلى درجة الإزعاج مطالبا بعدة ملايين من الفرنكات ، فيسعى التاجر إلى سلخ جلده ، بالمعنى الحقيقي للكلمة .. ثم ينتقل إلى الجانب الآخر في فيلم « العبور

(١) جورج كليمنصو Glémanceau رئيس وزراء فرنسا وخطيبها المقوّء ، ويطلقون عليه اسم : النمر . تولى رئاسة الجمعية الوطنية (البرلمان) من ١٩٠٦ - ١٩٠٩ ، ثم انتقل إلى قيادة السلطة الوزارية عام ١٩١٧ في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأحرز شعبية ضخمة بعد انتصار فرنسا على ألمانيا ، ثم كان على رأس المفاوضين في عقد معاهدة فرساي عقب الحرب ، لكنه استُبعد عن رئاسة الجمهورية وكانت مطعمه ، مما أأززنه وأدى إلى عزله ، إلى أن مات سنة ١٩٢٩ .

جان جابان في دور رئيس محكمة الجنايات.



(إلى اليسار) : لقطة من فيلم «المدفعية»
- ١٩٣٥ مع الممثلة «أنا بيللا» .

(إلى اليمين) : مع النجمة الفرنسية
ميشيل مورجان في فيلم : « رصيف
الضباب » وكانت بينهما علاقة فنية
وطيدة استمرت ٢٨ سنة .



بباريس - La Traversée de Paris ، ليكون هو الفنان الرسام الشهير ، يلتقى مصادفة بمهرب صغير يشتغل بالسوق السوداء « بورفيل » فيحاولان الهرب معا من الجنود الألمان الذين يحتلون باريس ، وفي حقيبة سيارتهما خنزير مقطع إلى أجزاء في حقيبة . يُقبض عليهما . لكن الفنان الشهير يُطلق سراحه ، ويتمكن شريكه من الفرار إلى ألمانيا .

من أحسن أفلامه « في حال البؤس - En Cas de Malheur » : محام باريسى بليغ مرموق يقع في غرام مجرمة شابة حسناء - بريجيت باردو - فيكاد هذا الغرام يقضى على مكانته وسمعته بتهديد من حبيبها الشرير ؛ ثم يصبح المحامى صاحب فندق في فيلم « قرد في الشتاء Un Singe en hiver » ، حيث يتعلم القرد الكبير « جابان » من جديد كيف يكون مخادعا مع القرد الصغير « بلموندو » . إنه في جميع شخوصه : كرئيس ، أو زعيم عصابة ، أو تاجر ، أو رسام ، هو هو ، الممتاز المكتمل .. العظيم .

بل إنه الأسطورة ! أسطورة بناها بنفسه وعلى طريقته ، فوق دعائم من طبعه المتميز ، وظل محافظا عليها بإصرار - طبيعى غير مُفتعل - إلى آخر يوم من أيام الوعي المتيقظ ...

فقد شاءت الأقدار أن يخبو هذا الوعي ثم ينطفئ في مستشفى باريسى داخل حجرة تعتبر من « ابتكارات » أو « مصطلحات » العصر الحديث : غرفة الإنعاش أو العناية المركزة ، وفيها يُعزل المرء - أيّا كان ماضيه ومكانته وكفاحه وقدره في دنيا الناس - ليظل وحيدا ، غريبا ، غائبا ، بين أيدي غرباء ، وإن كانوا أطباء وممرضين رحماء ، لكنه مقطوع الصلة بكل من عاش معهم سنوات العمر ، وأحبهم وأحبوه ، وصحبهم وصحبوه ، وعاشرهم وعاشروه ، وأسعدهم وأسعدوه ، وتعلق بهم ثم ها هم - مُكرهين - يتكونه ... ليلفظ مع الفجر - ذلك الأسد العجوز - أنفاسه الأخيرة ،

مخلفا وراءه تراثا ضخما تزهو به السينيما الفرنسية ، بل والعالمية ، ويستمتع به الملايين لعشرات قادمة من السنين .

في أحد أحياء ضواحي باريس القديمة ولد « جان ألكسيس » في ١٧ مايو ١٩٠٤ في أسرة متواضعة الحال ، في عصر كان الارتقاء ، والثراء ، والشهرة آمال تداعب أحلام الجميع ، خاصة أولئك الذين هم في أسفل السلم الاجتماعى ، وإن تشدق الناس بتعبيرات براقية مثل : المساواة ، والإخاء ، والحرية .

في سنوات طفولته وشبابه كان مجرد صعلوك بين كثيرين آخرين على استعداد دائما للتحرش والعراك والعض ! يقول :

« كنت كالعشب الشيطانى الذى ينمو تلقائيا بلا رعاية أو تهذيب .. »

كانت إذن فترة تسكع ، وتشرذ ، وميل إلى العزلة ظل ملازما له طوال عمره . إنه يقضى أوقاتا طويلة حرا طليقا متجولا وحده في الغابة القريبة ، يطارد ، ويصطاد الطيور بالنبل . إنها استمرار لطفولة مشردة ، تعلمت كيف تتفاهم بقبضة اليد ، وتسعى لارتكاب الأفعال الشرسة والخبيثة . وهو لا يتحرج فيما بعد أن يذكرها في حديثه ، فيقول : « كنا نسكن في بيت كبير من الحجارة ، طويل جدا ، لكنه جميل يجاور مباشرة شريط السكة الحديد . من النافذة ، كنت أراقب القطارات العابرة ، وكان هذا يبهرنى . فكان حلم يقظتى الوحيد : أن أصبح عاملا بالسكك الحديدية . حاولت جدتى ومعها أخواتى الثلاث تربيته . أما والدتى فكانت قليلا ما أراها : فهما من الفنانين . كان أبى صانع عربات يد ، ثم أصبح مغنيا . وأمى كانت تصنع منافض الريش ، ثم تحولت بدورها إلى الغناء ، فكانت تغنى بالمقاهى الرخيصة . أما عن دراستى ، فتلك مأساة ! كنت أكره المدرسة ، وأمقت عمل الواجبات المدرسية وحفظ الدروس . لاشك أن للبيئة والوسط تأثير سىء . في سن الخامسة عشرة كان لا بد لى من عمل . وفي مثل حالنا لم يكن البحث عن عمل يعنى البحث عن الثراء والذهب ، وإنما مجرد ما يسد الجوع وهذا أمر شاق . حسنا ! لم تكن بداياتى



وميشيل مورجان



مع بريجيت باردو في فيلم : « في حال اليوس » - ١٩٥٨



والصياد في فيلم : « البستاني » .

عظيمة أو فخمة على الإطلاق ! بدأت بالعمل كيناء ، ثم عامل أسمنت ، ثم عامل في متجر ، وأى عمل ردىء ... في ذلك الوقت كان في استطاعة المرء أن يعمل في ثلاثين صنعة ، أى ثلاثين حالة شقاء وبؤس ، هذا صحيح : فقد كنتُ أعمل كثيرا ، وأكدح وأشقى كثيرا ، وأجنى من ذلك قليلا ، أقل القليل . لكنى تعلمت شيئا : أن أقول للناس بصدق ما أفكر فيه ، ولا أضحك في وجه سيء النية أو الطوية ؛ وشيئا آخر : ألا أدع نفسى إلى الأبد كادحا محمولا على قدمي . كنت أجهل تماما أن الحياة يمكن أن تكون وردية ، وأن للورد عطرا وشذى . لم أكن أعرف إلا الشوك والقذى والعفن . ثم جاءت الأيام الحلوة فيما بعد . »

دخل « جابان » المجال الفنى في عام ١٩٢٣ . فقد سعى أبوه لإلحاقه «كومبارس» - أى شخصيه ثلثية صامتة لا تمثل - في الملهى الباريسى الشهير « فولى برجير » .

« لم أعرف في البداية ماذا أفعل . وكنت عاجزا عن حفظ أى نص مهما كان قصيرا . لكن أجرى كان أكبر كثيرا مما كنت أتقاضاه في المصانع والورشات الخائقة ، كما كان متاحا لى أن أشاهد عن قرب أجساد النساء الراقصات ، وهذا أفضل كثيرا من وجوه زملاء العمل المضمنى السابق ، تكسوها الهموم والأحزان . »

لم يكن صعود « جان جابان » من القاع نحو القمة سهلا سريعا ساطعا . لقد كانت سنوات جد عسيرة . ولكى ينجح الفقير الضعيف في تحقيق وثبة ، كان لا بد له من دفعة قوية وبذل طاقة هائلة يثبت بها جدارته . أفلح « جان » في اقتناص مكان بين زُمرَة المتحركين على المسرح بين أو خلف الحسناوات الراقصات ، ثم أخذ يتنقل من ملهى ليلى إلى آخر ، قبل أن تكتشفه السينيما عام ١٩٣٠ كممثل كوميدى لديه قدرات كبيرة ...

« لم يتخلَّ عنى النجاح أبدا . ولم أنس قط جذورى التعسة - البائسة . ولهذا ، عندما كان يُسند إلى أدوار تتعلق بالأرق والهيم نتيجة للظلم الاجتماعى ، وعندما كنت أؤدى تلك الأدوار التى يناضل فيها الإنسان المطحون اجتماعيا ضد الظروف

جبان مع النجمة « مستنجات »
سنة ١٩٢٢ في فيلم وحيد لهما .



(٢)



(١)



(٣)

- (١) مع الممثلة « سيمون سيمون » في فيلم : « الحماسة البشرية » سنة ١٩٢٩ .
(٢) مع النجمة الشهيرة السمراء « جوزفين بيكر » في فيلم : « زوزو » - سنة ١٩٣٤ .
(٣) مارلين ديتريش سنة ١٩٢٩ .

القاهرة المفروضة عليه ، فإننى كنت أبدو طبيعيا وعلى سجيته . فلقد رأيت بعينى رأسى وعشت فى الحياة مأسى العمال ، وبيئة الأحياء الوضيعة ، وتصفية الحسابات الدامية ، والعنف القاتل ، والشقاء بكل ألوانه ، والغيرة والتباغض . كل ذلك شاهدته فى الواقع . إن الفقر والبؤس والاحتياج ، ليست من الأشياء الجميلة . إنها تنزع من الإنسان كرامته وتجرده من إنسانيته . إنها تحط من قيمته وتنزله «أسفل سافلين» . إنها تنسف الحب ، وتُغرق الصداقة والود . لقد كانت تلك الأيام قاسية مهلكة ، كان المرء يُضنيه العمل من أجل أن يأكل ، حتى لا يموت من الجوع ، وليس من أجل شراء جهاز تليفزيون أو سيارة . كان البطل حينذاك هو الذى يدور كالنحلة بحثا عن عمل أو منتقلا طوال يومه من عمل إلى عمل ليحصل على الكفاف . ولم يكن هذا متاحا لكل إنسان . فطالما كان للمرء أمعاء تتحرك فلا بد لها من طعام!» .

أصبح جابان الممثل المفضل لدى المخرج « مارسل كارنيه » ، والمخرج «جان رنوار» ، فصعد إلى مرتبة نجم السينما الفرنسية فى الثلاثينيات ، وأحبه الجمهور وأطلق عليه اسم أحد أفلامه « صدغ الحب » . ثم جرب حظه فى الزواج مرتين وفشل ، لأنه - بتعبيره - « كان أشبه بالاختناق بالغاز » ! وهو منذ بداية نشأته ، تعود على الانطلاق والحرية . فأفزره تكبيل فرنسا بالأغلال إبان الاحتلال الألمانى فى بداية الحرب العالمية الثانية . فلما علم بقرب زيارة هتلر لباريس ، أسرع بالرحيل إلى أمريكا حيث سبقه عدد كبير من السينيمائيين الفرنسيين ، وأقاموا فى كاليفورنيا (بالغرب) ، فى هوليوود ، جنة السينما . فمتملَّ فى فيلمين تافهين رديئين . لكن الذين عانوا من ويلات الاحتلال المتطرس لم ينظروا بارتياح إلى أولئك الذين « هربوا » من فرنسا إلى أمريكا ، مع أنه تطوع بمحض إرادته عام ١٩٤٣ فى القوات البحرية الفرنسية الحرة . يقول :

« سافرت من أمريكا على ناقلة بترول كراكب من الدرجة الثانية فى المعاملة ، وشاهدت السفن الحربية تتعرض للهجوم من الغواصات الألمانية . رأيت سفنا

تختفى إلى القاع في لحظات إثر ضربها بقذائف الطوربيد ، وأخرى تشتعل كالجحيم ثم تنفجر. لن أنسى ذلك ما حييت . بعد ذلك استُدعيت كمدفعية بحرى واشتركت بكل مشقة واحتمال في فرق تحرير فرنسا . لقد أديت واجبي وحصلت على استحسان قادتي . فلما انتهت الحرب وعدت إلى عملي الفنى ، وجدت أن زملاء آخرين أخذوا مكاني، وأن الناس نَسَوْنِي ، فكان عليّ أن أبدأ من جديد .» لكن بين العمل في هوليوود والعودة إلى البداية من جديد ، كانت قصة حب كبيرة في حياة جابان ، شغلته ، وبالأحرى غمرته نحو ست سنوات ، واستمرت مع «الحبيبة» نحو ثلاثين سنة ! إلى يوم أن سمعت من الإذاعة في الصباح - وهى تحتسى القهوة كعادتها - المذيع يقول : « أيها السيدات والسادة ، استمعوا جيدا إلى هذا الصوت .. إنكم تعرفونه جيدا ، وأحبيتموه كثيرا (ثم انساب صوت جان جابان الرخيم يتلو قصيدة جيدة للشاعر « جان - لو - دابادى » عن الحب ، والأصدقاء ، والزهور) ، ثم تابع المذيع في صوت حزين : « إنه جان جابان ، الذى لن يتحدث إليكم بعد الآن أبدا .. فقد رحل فجر اليوم عن عالمنا » .. كان ذلك في نوفمبر ١٩٧٦ .

هنا أدركت « مارلن ديتريش » خاتمة القصة التى عاشت لها ومعها سنوات طويلة، يحدوها أمل - ولو ضعيف - أن يضع لها جان جابان نهاية ترجوها هى وتترقبها بعد أن جاءت إلى فرنسا ، إلى باريس للإقامة الدائمة بها لتكون على مقربة منه .

كان آخر لقاء بينهما في عام ١٩٤٦ - أى منذ نحو ثلاثين سنة قبل وفاته - عندما اشتركا معا في بطولة فيلم « مارتان رومانياك Martin Roumagnac » ، وهو من أسوأ أفلام جابان، وقد استطاع هو أن يحصل على نسخته الوحيدة المتبقية في السوق ، ودمرها تماما حتى يمحوا أثره !

في الفترة بين عامى ١٩٤٠ - ١٩٤٦ جمع بينهما حب عنيف لم تستطع سنوات الحرب ولا ظروفها الضاغطة أن تفرق بينهما . وبينما كان هو بعيدا عن فرنسا في



جابان مع مارلن ديتريش في فيلم : « مارتان
رومانيك » . بداية قصة حب بينهما انتهت



في فيلم : « الوهم الكبير » - سنة ١٩٣٩ .

تلك الفترة تقريبا ، إلا أن أخبارهما كانت تلف باريس ، وهوليوود ، والجزائر (لم تكن استقلت عن فرنسا بعد) وأيضا : ألمانيا (لأن مارلين من أصل المانى وبدأت شهرتها السينيمائية من هناك) .

بدأ اللقاء والود بينهما في هوليوود حينما سافر هو إليها فرارا من ضغوط وصَلَف الاحتلال الألماني ، وكان معروفا مشهورا بأفلامه في فرنسا . أما هي فكانت في قمة شهرتها وتألقتها في أمريكا حتى كادت تصبح بين رواد السينيما أسطورة من خلال أفلام، مثل : « فينوس الشقراء » و « الإمبراطورة الحمراء » ، و« الملك الأزرق » ، وكلها تركز عليها وحدها، وعلى جاذبيتها المثيرة . فكانت العلاقة بينهما حديث كل الأوساط الفنية والاجتماعية . لأنها بدت غير « طبيعية » : فهي التي كانت تراود خيال وأحلام الملايين من كل المستويات ، إذا بها تنحنى راضخة راغبة أمام هذا الغريب الوافد (أو الهارب) الأقصر منها طولا والأخشن لغة وسلوكا . لكنهما تجاوزا كل الأقاويل والتهكمات والغمزات ، في تواصل حميم ، إلى أن باعدت بينهما الحرب ، كل منهما يؤدي واجبه فيها وبأسلوبه . هي : تغنى للجنود في معسكرات جبهات القتال مرتدية ثوبا شفافا مطرزا بألف قطعة من الماس . وأحيانا كانت أصوات المدافع وضجيج القذائف تغطى على صوتها في أثناء الغناء . ووقفت مرة تغنى للجنود المبهورين بها فوق مجموعة من القذائف سُلِّطت عليها الأضواء، وكأنها (أى القذائف) خشبة المسرح !

وفي يوم كانت تؤدي مهمتها الترفيهية قرب الحدود بالمواقع الألمانية ، في حين - بالمصادفة - كان جابان على بعد ثمانين كيلو مترا منها في موقع كتيبته ، وكانا من قبل على اتصال دائم يعرف كل منهما تحركات الآخر يوما بيوم . فلما سألت وعلمت بالضبط أين مكانه ، تمكنت من الحصول على سيارة « جيب » عسكرية ، انطلقت بها في سرعة جنونية إلى أن بلغت الموقع الذى يتحصن به جابان مع سائر الجند ... في تلك اللحظة كان بالموقع طابور عرض يمر به أحد الجنرالات يتفقد الجنود . وفيما

بعد رَوَتْ مارلن لصديقة لها تحتفظ بأسرارها ، قالت ، وكأنها تحكى مشهدا من رواية أو فيلم كوميدى :

« كانت نحو عشرين دبابة مصطفة الواحدة بجوار الأخرى ومحركاتها تزار هادرة، وأنا أقود سيارتى الجيب فى خط متعرج بين الدبابات أسدد النظر إلى مَنْ فيها ، واثقة من أننى سألمح جان بسهولة لأنه كان حريصا على الاحتفاظ فوق رأسه دائما بالبيرييه ذى الشريط الأحمر الذى سَمَحَتْ له البحرية بارتدائه . فلما لمحتهُ ، أوقفتُ السيارة وقفزت نحو الدبابة التى كان بها وتسلفت جنزيرها من الخلف ، فلما صعدت إلى برج الدبابة صِحْتُ منادية باسمه . فأدار عينيه نحوى وصرخ فى زاجرا (دعينى وشأنى!).... » . لقد كان يعرف جيدا معنى الواجب وكيف يُوَدَّى .

بعد انتهاء الحرب ، عرض عليهما المخرج « مارسل كارنيه » الاشتراك معا فى فيلم اختار عنوانا له: « أبواب الليل - Les Portes de La Nuit » ، وحاول إغراءهما بالقبول لأنهما معا ثنائى نادر ، والمفروض فى البطلة أنها أجمل فتاة فى العالم . لكنهما لم يمثلتا الفيلم . وظلا معا حتى كان اشتراكهما فى فيلم « مارتان رومانياك » . وفى غداة اليوم الأخير من تصوير هذا الفيلم ، كانت المفاجأة الغامضة حتى نهاية حياة جابان : فقد تزوج « دومينيك » عارضة الأزياء عند « لانفان » ، ولم يستطع أحد مطلقا أن يعرف سر هذا الزواج السريع المفاجيء - على الرغم من أنه قابل دومينيك مصادفة (واستمرت معه إلى آخر عمره وأنجبت له ابنتيه فلورانس وفاليرى وابنه مانياس) وكأنه بهذا الزواج العاجل المبالغت ، أراد أن يضع خطأ فاصلا ، بلا عودة . بل اتخذ قرارا جادا ظل ملتزما به حتى النهاية : إن كل فترة مارلن ديتريش السابقة فى حياته لم يعد لها وجود . ورفض تماما بعد ذلك أن يذكر اسمها أو يتحدث عن ذكرياته معها ، أو يشاهد فيلما لها . وكان إذا ظهرت مصادفة على شاشة التليفزيون ، أدار مفتاح تغيير القنوات بهدوء. بعد سنوات طويلة ، حاول



أمام بيته (بغطاء الرأس) في مزرعته بالريف



مع زوجته جين في إحدى الحفلات ،
ونادرا ما كان يسمح بتصويرها أو تدخل
الإعلام في حياته العائلية .



وجد جابان الاستقرار العائلي مع جين دومينيك (خلفه) التي
تزوجها وأنجب منها الأبناء وظلت ترعاه حتى لحظة وفاته .

بعض الأصدقاء - ربما بإيعاز منها - إقناعه برؤيتها، لكنه رفض بإصرار شديد وحجته: « الزوجة ، والأولاد ... » .

ونعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية - ومحاولة جان جابان بناء حياته الفنية من جديد بعد أن وجد مكانه ليس شاغرا ، وكاد أن يتوارى في ضباب النسيان . لم يكن هذا « الإحياء » أو البعث أمرا سهلا . فإن نجم الثلاثينيات أصبح الآن طرازا قديما . لم يشفع له مجده السابق ، ولا كفاحه الشاق وما بناه بجهد وكفاءته ، والذي طالما استثار غيرة الكثيرين من السينمائيين ، بل على العكس ، صادمته العوائق والحواجز ، وخدوش الزمن على الوجه ، فغيّرت النظرة إلى فتى الشاشة الأول السابق . لقد ازداد سمته ، وابيض شعره ، وظهرت على ملامحه تجاعيد . وغلب عليه طابع الهجوم والعدوان . إنها سبع سنوات من القلق والضجر تمر متناقلة . يقول :

« ذاب المدخر من مال ، ولم أجد عملا . رأيت زملاء سابقين يغوصون في البؤس ، وآخرين يتسولون . لم أشأ أن أستسلم للغرق . إننى لم أفلت سالما من الحرب لكى أهلك جوعا كالأوغاد ، وها هو السلام يعود . فاشترت حينئذ قطعة صغيرة من الأرض في نورماندى . قلت فى نفسى : إن الأحجار (البناء) والأرض لا تهلك أبدا . وإذا كانت حياتى الفنية قد انتهت بلا عودة ، والجمهور سئم حقا رؤية وجهى الكالح، فإن الأرض التى اشتريتها بما تبقى من مال جمعته بمشقة وجهه وعرق دون مساعدة من أحد ، حسنا ، تلك الأرض لن تخوننى ولا بد من ركيزة ، مأوى أستقر عليه أنا وأسرتى . هكذا كان قرارى . إذا كان لابد من أسرة ، ومن أبناء . إن ذاكرتى لم تنس مطلقا تجربتين عشتها بمرارة : البؤس عندما كنت صبيا ، والنسيان (من الناس) عندما كبرت . تجربتان محفورتان بالحديد المتوهج، ولا بد أن أجنب الزوجة والأبناء آمم الاكتواء بهما » .

عندما رأى « دومينيك » - واسمها الحقيقى كريستيان فورنييه - أحس أن

سهمها نافذ في الحال إلى قلبه . وهو الذي مرَّ به طابور طويل من الحسنوات والشهيرات ، لكن إحداهن لم يهتز لها قلبه مثلما كان مع دومينيك . وشعر من البداية أنه لا يطيق البعد عنها . فلما أخبرته أنها بحكم عملها كعارضة أزياء سوف تسافر إلى الدار البيضاء، انتابته الغيرة والقلق ، وأخذ ينظر إليها طويلا في صمت ، متأملا عينيها الزرقاوتين وشعرها الأشقر وقوامها الرشيق وابتسامتها العذبة، ثم فاجأها قائلا : « لا سفر ، لا عمل ، سوف نتزوج في الحال »! وكان ذلك في الثالث والعشرين من مارس بعد ستة أسابيع من بداية تعارفهما . قال :

« في ذلك اليوم ، وضعت بنفسى - كرجل راشد مكتمل - أجمل قيد على حياتى . كنت في نشوة من السعادة لم أشعر بها أبدا من قبل . وفي اليوم التالى قلت لنفسى : ليس هذا كل ما فى الأمر ، هيا التزم واجبك لإطعام وإشباع عالمك الصغير هذا ، وجنبه قسوة الحياة ومآسيها . »

جاء الحظ مرة أخرى على يد المخرج « جاك بيكر » إذ عرض عليه بطولة فيلم « لا تلمس المال Touchez pas au Grisbi » عام ١٩٥٣ فاكسب نجاحا كبيرا ، وظهر جابان مؤثرا ، ناضجا ، واثقا من نفسه ، معبرا بصدق شديد عن قيمة النجاح ونتائجه وانعكاساته فى الحياة ، ثم غيره وغيره . واتسعت رقعة مزرعته فى نورماندى . دائما يشتري . واقتحم مجال تربية الماشية والأغنام ، والخيول ، وتحسين نسلها ، والسباقات. لم يسلم من حقد المزارعين المجاورين . هجموا على مزرعته . اعتبروه دخيلا على حرفتهم ، جامعا للثروة من كل سبيل . لكنه الخائف من الماضى ، لم يتراجع . مضى صامدا فى حزم وعزم : « إن السينيما ليست مهنة أو حرفة . إنها ورقة يا نصيب . وأنا أعرف جيدا عمَّ أتكلم . أما الخيول ، والماشية ، والمزرعة .. تلك هى الأشياء المتينة ، وهى مجال العمل الحق ، وقد تعلمته جيدا ، أنا الذى كنت نافرا من كل التعليم . فى الليل ، عندما تنام (العظيمة) كناية عن زوجته -



في فيلم : « لا تلمس المال » - ١٩٥٢ بعد العودة من الحرب

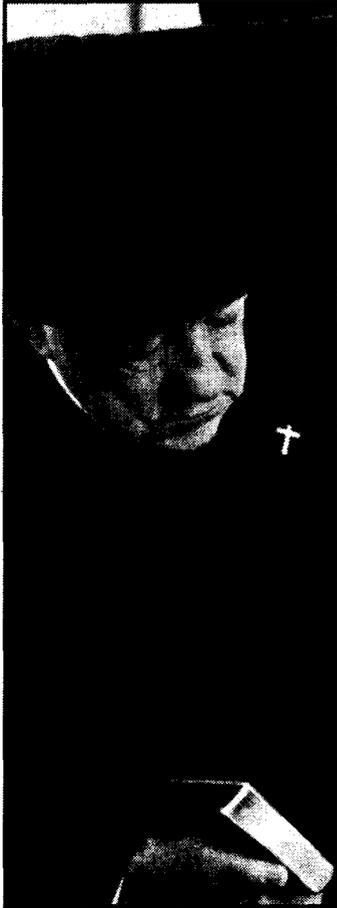


(إلى اليمين) في فيلم : « الموشوم » - ١٩٦٨ مع الممثل الهزلي لوى دو فونيس

أستيقظ أنا ، وأذهب لأفترش التبن تحت الأبقار . السينيما مجال السذج ، أما أن يكون المرء فلاحا ، فهذا مجال عمل الراشدين الأسوياء . السينيما ؟ .. نعم ، أعطنتى ما كنت فى حاجة إليه من أجل المزرعة ، وخزانات المياه والسماد ، والحلابات الكهربائية .. وإذا كنت قد أقمت مملكة منتجة خضراء ، فهى للزوجة وللأبناء . لقد عرفت الفقر والبؤس والشقاء ، وأريد أن أجنبهم ذلك . أريد أيضا ، عندما أرحل عن دنياهم ، أن يكون لديهم ما يلبى احتياجاتهم .

« إن أسرتى هى كل ما أحرص عليه : عندما يعطس أحد الأبناء ، أو يسعل (يكح) أو يئن ، أكون أنا الذى على تلك الحال ، أنهض كالصقر ، ومقياس الحرارة (الترمومتر) فى يدى ، متحفزا لاستدعاء الطبيب . أنا أحبهم كثيرا هؤلاء الأبناء . وفيما بعد ، إذا لم يعجبهم ما تركته لهم ، إذا تكاسلوا عنه أو باعوه ، فهذا شأنهم . أما أنا فقد أرحت ضميرى . فعلت ما كان يجب علىّ أن أفعله ، ومع ذلك أرجو أن يتابع ابنى نفس المسار . لقد كنت صارما معهم . لم أسمح مطلقا أن تستقبل البنيتين أصدقاء بنين فى بيتى ، ولم أدع ابنى مانياس أن يكون مسرفا مبذرا .. لم أخادعهم قط ، كما لم أغرقهم بالقُبلات . عندما أعود إلى البيت ، يسود الهدوء والسكينة . ومع ذلك ، فأنا أعرف ، نعم أعرف جيدا أن المرء يجب أن يكون فى أسرة تسودها روح الجماعة والعشيرة .

« أما عن دومينيك - الزوجة - فإننى لم أكن أتوقع من زوجة أن تعطى أفضل من عطائها . فى مثل سنى ، فى المساء يُحب المرء أن يتدثر ، وأن يجلس إلى التليفزيون أو يقضى وقتا فى الحديث والسمر . إن لى مثالى . وهى تملك الصبر . قريبا سوف أسلم العُهدَة (أى أرحل عن الدنيا) - سوف يأتى الدور على أولادى للسهر على راحتها ، وعلى شئون المزرعة . فى سن الثانية والسبعين ، وعلى الرغم من وزارة المالية وضرائبها التى تستقطع نصف دخلى وعائد جهدى ، فإن لى الحق أن أستريح .



آخر أدواره في فيلم : « السنّة المقدسة »
حيث يؤدي دور لص محتال يتخفى
في زي قسيس .



مع بلموندو في فيلم : « قرد في الشتاء » - ١٩٦٢



في مزرعته

لقد عشت المشقة والفاقة ، كنت لا أُحتمل ، مهووسا . باختصار لم أعش حياة
الطفولة الوردية كما كان يجب . أعتزف بذلك ، ولم يكن ننبى . إذا كنت في حياتي
كثيرا ما تأففت ، فما ذلك إلا لأننى كثيرا ما أحببت ... » !



استخدم جابان في فيلم « الرئيس » ذروة كفاءته وقوته الفنية وسيطرته فكان قمة
أفلامه الثلاثة والتسعين .
